

استخدام الرموز في شعر يحيى السماوى

* بهنام باقرى

** جهانگیر اميرى

*** هادى جاهد

تاريخ الوصول: ٩٢/٨/٨

تاريخ القبول: ٩٣/٣/٥

الملخص

يُعد يحيى السماوى من الشعراء الذين عاشوا محنة العراق فى ظل سيات الديكتاتورية الصدامية، وبعده، الاحتلال الأمريكى تحت شعار حرية الزائف. ويُعد من الشعراء الذين يعبرون عن آلام الشعوب بكل صدق وأمانة، وهو فى نفس الوقت ضحية الأصول والمواقف التى يؤمن بها، مما سبب له المعاناة والتشرد والاعتراب. الشاعر يستمد رموزه من البيئة، ويكثر من ذكر المفردات الدالة على الطبيعة؛ ويخلع عليها من عواطفه، وينقلها من دلالاتها المعجمية إلى دلالات جديدة، كما طبيعة الطيور والحيوانات وصفاتهما ألهمت الشاعر فى استخدامها بصورة رامزة للتعبير عما يجرى فى العراق. ستحاول هذه الدراسة أن تكشف رؤية السماوى الشعرية من خلال استخدام هذه الرموز، والتعرف على دلالاتها وأبعادها فى خطابه الشعرى. وحين يوظف الشاعر هذه الرموز، إنما يريد من خلاله التعبير عن أحاسيسه وآلامه إزاء ما تمر بالعراق الجريح من الظلم، والدمار والمآسى، وحث الشعب العراقى على الصمود والمقاومة.

الكلمات الدليلية: يحيى السماوى، العراق، الاحتلال، الرموز.

bbagheri75@yahoo.com

Gaamiri686@gmail.com

hadi_jahed65@yahoo.com

* طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازى، كرمانشاه.

** أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازى، كرمانشاه.

*** طالب الدكتوراه، جامعة آزاد الاسلامية، فرع علوم و تحقيقات، طهران.

المقدمة

إذا اتجهنا في بداية الأمر إلى مفهوم الرمز نلاحظ مفهومات عديدة ومختلفة في تحديد المراد؛ الرمز ظاهرة فنية لافتة للنظر في الشعر العربي الحديث. والرمز بمعناه العام هو «الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري، مع اعتبار المعنى الظاهري مقصوداً أيضاً» (عباس، ١٩٩٦م: ٢٠٠). يعد استخدام الرمز من أبرز الظواهر الفنية في حركة الشعر العربي المعاصر، فقد لجأ العديد من الشعراء المحدثين إلى استخدامه للتعبير عن تجاربهم وأفكارهم وعواطفهم. يعتبر يونج الرمز «وسيلة لإدراك ما لا يستطيع التعبير عنه بغيره، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي، وهو بديل من شيء يصعب أو يستحيل تناوله في ذاته» (ناصف، ١٩٨١م: ١٥٣). ويرى تشارلز تشادويك «الرمزية أنها فن التعبير عن الأفكار والعواطف، ليس بوصفها مباشرة ولا بشرحها من خلال مقارنات صريحة وبصور ملموسة، ولكن بالتلميح إلى ما يمكن أن تكون عليه صورة الواقع المناسب لهذه الأفكار والعواطف» (تشادويك، لاتا: ٤١-٤٢).

استخدام الرمز في الشعر الحديث سمة مشتركة بين الشعراء على مستويات متفاوتة. «وليس غريباً أن يستخدم الشاعر الرموز والأساطير في شعره، فالعلاقة القديمة بينهما وبين الشعر ترشح لهذا الاستخدام، وتدل عندئذ على بصيرة كافية بطبيعة الشعر والتعبير الشعري» (إسماعيل، ٢٠٠٧م: ١٩٥) وتكمن وظيفة الشعر الرمزي في «توليد المشاركة الوجدانية بين الشاعر والمتلقي، وطريق ذلك الاعتماد على وسائل الإيحاء في الأصوات والتركييب والصور والإيقاع» (أحمد، ١٩٨٤م: ١٠) وحين يوظف الشاعر الرمز، إنما يريد من خلاله التعبير عن أحاسيسه وأفكاره. وتأتي أهمية توظيف الرمز الشعري من أن «أي شيء في حياتنا العملية لا يمكن أن يكون له خاصية شعرية، ما لم يوظفه الشاعر كمعادل موضوعي للإحساس والفكر اللذين يريد نقلهما إلى المتلقي» (حوراني، ١٩٩٦م: ٨٥) واستخدام الرمز في الشعر دليل على عمق ثقافة الشاعر من جهة، وعمق نضجه الفكري من جهة أخرى؛ «الرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيتها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصاً» (إسماعيل، ٢٠٠٧م: ١٩٨).

وبتتبع الرمز عند السماوي نجد، أنه يستقى رموزه من البيئة العراقية ومظاهرها، وتتمحور هذه الرموز حول مرموزات معينة هي الوطن، الخونة، المحتلون، الإرهابيون... إلخ.

إنّ *السماوى* يتماهى مع مفردات الطبيعة فى وطنه مع النخيل والبساتين والأنهار والواحات والعصافير وكل ما يتعلق بالوطن الجريح. وأنّ الشاعر يحب وطنه مع طيوره ونباتاته وإنسانه وجماده بكل أفراحه وأحزانه. ويكثر من ذكر المفردات الدالة على الطبيعة فتزاحمت معطياتها فى قصائده وتجلّت بخضرتها ونضرتها. لأنه لا انفصال بين الأرض التى يحن إليها الشاعر ونباتاتها وأمكنتها؛ بل إنّ النبات يزيد الارتباط بها لأنه جزء من هذه الأرض التى عشقها بكل معطياتها. وأكثر هذه المفردات مشتقة من الطبيعة العراقية المعيشة. وتتحول هذه المفردات إلى رموز فى سياقات توظيفها فى الحديث عن الوطن ومآسيه فى ظل سيطرة حزب البعث عليه، والاحتلال الأمريكى وجرائمه البشعة فى العراق. فندرس هذه الرموز لتبيين هذا الموضوع، ولما كان عدد الرموز المستخلصة فى شعر السماوى كثيرة، فقد اقتصرنا على الرمز المهيمن داخل نصه الشعرى وهى النخيل، النهر، العصفور، الذئب، الخنزير، الجراد، الغراب.

لقد اعتمدنا فى البحث، المنهج الوصفى التحليلى، الذى يعنى بدراسة الرموز فى شعر *السماوى*؛ للوقوف على أبعادها الدلالية وتجلياتها فى الخطاب الشعرى فى تحقيق أهدافه. ويتكون هذا البحث من مقدمة أبرزنا تعريف الرمز ووظيفة الشعر الرمزي وأهميته، ثم تحدثنا عن حياة السماوى، ثم تناولنا بالتحليل أهم الرموز الواردة فى شعره. ثم جاءت النتيجة التى عرض فيها أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة.

قد عنى *السماوى* فى شعره بتصوير مآسى وجراح الشعب العراقى فى ظل النظام الديكتاتورى الصدامية وبعده؛ الاحتلال الأمريكى للعراق وديمقراطيته المزعومة وجرائمه البشعة فيها ونشأت الفوضى والدمار والإرهاب فى ظل هذه الحرية الزائف. والعراق التى هى جزء من فؤاده ومعاناته وجراحه واغترابه، أصبحت مأساته الدائمة. وتمثل له التاريخ، الحاضر، والمستقبل والأمل؛ وعلى هذا، يصير كل مظهر من مظاهر الوطن عالقاً بفكره، والباحث فى شعر *السماوى* يجده يهتم بالمفردات الطبيعية اهتماماً واضحاً، ويولد من استعمالها سلسلة من المعانى السياقية التى نقلها من دلالاتها المعجمية إلى دلالات جديدة. واستخدام هذه الرموز فى شعر *السماوى*، يبرز رؤية الشاعر الخاصة تجاه ما يمر بالعراق وتحمل الرموز آفاقاً رحبة وإيحاءات كثيفة وتبرز قدرة الشاعر فى اكتشافه للعلاقات العميقة التى تربطه بهذه الأرض. ومن هنا تكمن أهمية الدراسة وجدوى تسليط الضوء

على هذه التجربة الشعرية؛ لتبيين مكانة *السماوى* الشعرية فى الشعر العراقى الحديث وتحليل دلالة هذه المفردات والكشف عن أبعادها الدلالية وملامحها التى يتميز شاعرنا فى توظيف هذه الرموز فى شعره.

هذا المقال يسعى ليجيب عن الأسئلة التالية:

- ١- ما هى دلالات هذه الرموز فى شعر *السماوى*؛ وهل هى محاولة ناجحة فى الكشف عن عمق الجرح والألم الذى يعانى منه الشاعر إزاء ما تمر به العراق؟
- ٢- كيف عبّر الشاعر من خلال هذه الرموز عن حنينه وتشبثه بمآسى وآلام وطنه الجريح؟

٣- هل تنحصر الرمزية فى هذه المفردات أم تتعدد بتعدد سياقاتها؟

الدراسات السابقة

لقد كثرت الدراسات التى تناولت شعر *السماوى*، منها؛ كتاب «العشق والإغتراب فى شعر يحيى السماوى "قليلك لا كثيرهن نموذجاً"» للدكتور جاهين بدوى، وكتاب «الشعر العراقى فى المنفى "السماوى" نموذجاً» للدكتورة فاطمة القرنى. وهناك كتابان لـ *عصام شرتح*، وهما: «آفاق الشعرية؛ دراسة فى شعر يحيى السماوى» و«موحيات الخطاب الشعرى فى شعر يحيى السماوى» الصادر عن دار الينابيع فى دمشق. وكذلك؛ كتاب «تجليات الحنين فى تكريم الشاعر يحيى السماوى»، لـ *ماجد الغرباوى*، من مؤسسة المثقف العربى، فى المجلدين من أجل تخليد الذكرى، وما كتب حول انجازاته فى هذه المناسبة، والمقالات التى كتبت حول تجربته الشعرية. ويشتمل هذا الكتاب على عدة أبواب: دراسات نقدية، مقالات، حوار مفتوح مع الشاعر حول آرائه وتجربته الشعرية وحياته.

أما المقالات التى تناولت تجربة الشاعر يحيى *السماوى* مقال «دراسة وتحليل للمضامين الشعرية للشاعر العراقى يحيى السماوى» للدكتور يحيى معروف، ومقال آخر له و *لبهنام باقرى* فى العدد التاسع من «مجلة دراسات فى اللغة العربية وأدائها» بعنوان: «عناصر الموسيقى فى ديوان نقوش على جذع نخلة ليحيى السماوى» ومقال بعنوان «موتيف الاغتراب فى شعر يحيى السماوى» لـ *رسول بلاوى* وآخرين، ومقالتي «دلالات

الألوان في شعر يحيى السماوى» و«إستدعاء شخصية الإمام الحسين(ع) في شعر يحيى السماوى» لرسول بلاوى ومرضية آباد. كذلك أطروحة الدكتوراه بعنوان «الموتيف في شعر يحيى السماوى» في جامعة الفردوسى بمشهد.

أما بالنسبة لدراستنا؛ لم تفرد دراسة مستقلة لهذا الموضوع، كل ما يوجد بالنسبة إليها، هي في كتاب «العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوى»، حيث إن الكاتب ذكر بعض الشواهد من شعر السماوى، حول رمزية "النهر" و"النخل" فيه؛ لكنه اقتصر في ديوان واحد من أعمال الشاعر وهو ديوان «قليلك لا كثيرهن»، واستفاد الباحث من هذا الكتاب والكتب الأخرى وذكرناه في القسم المصادر والمراجع. إذن؛ جاءت هذه الدراسة، هي الدراسة الأولى التي تختص بدراسة "استخدام الرموز في شعر يحيى السماوى"، فجاءت لتسلط الضوء على جانب لم يعن به أحد من الباحثين من قبل.

نبذة عن حياة الشاعر

«يحيى عباس عبود السماوى وُلد بمدينة السماوة في العراق في السادس عشر من مارس ١٩٤٩م، ثم تخرّج في كلية الآداب الجامعة المستنصرية عام ١٩٧٤م، ثم عمل بالتدريس والصحافة والإعلام، استهدف بالملاحقة والحصار من قبل البعثيين في النظام الصّداميّ حتى فرّ إلى السعودية سنة ١٩٩١، واستقرّ بها في جدّة حتى سنة ١٩٩٧م، يعمل بالتدريس والصحافة، ثم انتقل مهاجراً إلى إستراليا؛ وبها يقيم حتى الآن» (بدوى، ٢٠١٠م: ١١) أصدر السماوى حتى الآن أكثر من عشرين ديواناً.

شكلت علاقة الشاعر بالوطن جوهر دواوينه من حيث مضامينها، فقد التصق بالوطن إلى حدّ الانصهار التام، وانعكس ذلك في شعره بشكل مباشر. يقول عصام شرتح؛ «والمساوى يملك النفس الشعري المتألق، وحسن الأداء الفني في استقطاب الصورة العميقة وبلورتها بنسق تشكيلي مراوغ تخطّ إيقاعها بصرياً كما تخطّه إيقاعياً وترنيمياً صوتياً؛ مما يجعل نصوصه تسبح في فضاء التكثيف الإيحائي والتشكيل الجمالي المثير على بياض الصفحات، وهذا ما يجعله شاعر الإيقاع والصورة التي تُخلّق بالقصيدة إلى مرتبة سامقة من الإثارة، والتحفيز، والإبداع» (شرتح، ٢٠١١م: ٨-٩). إذن؛ هو شاعر كبير في بناء صورته الشعرية، وتحفل انجازاته بقيم الإنسانية النبيلة، ووظف شعره لخدمة الإنسان

والمسيرة الإنسانية وخاصة تفاعله الكبير مع قضية وطنه الجريح الذي تعرض للطواغيت - حزب البعث - وللاحتلال الأمريكي، ولأشرس هجمات إرهابية فى التاريخ نتيجة هذا الاحتلال وديمقراطيته المزعومة. وقد عنى السماوى فى شعره بتصوير المجتمع العراقى ومآسيه بكل أبعاده وتوجهاته، وقد ملكت العراق ومدنه مشاعره وأحاسيسه ووجدانه، وغدا كل شىء فيها مثار إعجابه واشتياقه وتعلقه بها. إذن؛ خصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح. والعراق، لم تغب عن باله وهمومه بل تغلغل فى وجوده وملكته عليه احساساته ومشاعره.

الرموز الواردة فى شعر يحيى السماوى

النخل

هذه الشجرة تمثل أبعاداً كثيرة ويصبح النخل قيمة مثيرة للتذكير بالوطن وأحزانه وجراحه. أن العراق تعتبر من أكبر الدول العربية غرساً للنخيل وهى رمز من رموز الطبيعة العراقية التى اختارها الشاعر عنواناً لديوانه «نقوش على جذع نخلة»، فقد عمد الشاعر فى هذه المجموعة إلى نحت عنوان ذات الصبغة الإيحائية؛ فـ"النخل" هنا هو العراق، فهو مستمد من بيئة الشاعر الخاصة؛ لأن تعتبر العراق من أكبر دول العربية غرساً للنخيل، وهو حاضرة فى كل قصائد هذا الديوان. و"النقوش" هى الكلمات والآهات التى تطحن صدر الشاعر على جرح النخيل (الوطن)، وتجسد مآسيه ودماره. ومن هنا، كانت تسمية الديوان تسمية مقصودة، توحى بالوطن وأحزانه. وهذه الرمزية للنخيل لا تنحصر فى هذا الديوان فحسب، وإنما هى موجودة فى دواوينه الأخرى. ويذكر الشاعر النخيل فى كثير من قصائده الذى يتميز بالصمود، ورمزيته للطبيعة العراقية هى استمرار التعلق بالوطن ومشاركته فى آلامه. وإن السماوى يوظفها فى سياقات مختلفة ولا تنحصر فيه الدلالة، بل تعدد بتعدد سياقاتها وهى من أكثر الرموز شيوعاً وتواتراً فى شعره. منها قوله(السماوى، ٢٠٠٥م: ١٢):

فَلَقَدْ خُلِقْتَ كَمَا لِلنَّخِيلِ عَنِيدَا
تَأبَى الْخَنُوعَ وَإِنْ تُبَاحَ وَرِيدَا

حَاشَاكَ تَنْثَرُ لِلْغَزَاةِ وَرُودَا
لَا زَالَ فَيْكَ مِنَ الْحَسِينِ بَقِيَّةً

النخل هنا؛ مظهر من مظاهر الوطن، فقد جعل الشاعر من النخل رمزاً للشعب العراقي بشموخه وكبريائه، ويوحى بالإصالة والثبات والمقاومة. كما؛ يستدعي الشاعر شخصية ذات رمزية بطولية، لها أثرها في تاريخ الإسلام، والممثل الحقيقي لكل دعوة نبيلة التي انطلقت وثارَت على واقع الظالم، وهي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، والفكرة الرئيسية لهذه الاستدعاء تقوم على حث الشعب على الجهاد، والبطولة، والشجاعة، ورفض التخاذل أمام العدو. ومن ذلك أيضاً قوله (السماوي، ٢٠٠٩م: ٨٦):

ولنا من النخل:

شرف الموتِ وقوفاً دون انحناء

فخذوا بنصحى:

عيونكم لا تقوى على عواصف صحارانا.

إننا ندرك أن "النخل" يعيش في وجدان الشاعر وفي ذاكرته ويوحى بالصمود والثبات أمام الاحتلال الأمريكي وعدم الاستكانة والخضوع للدفاع عن العزة والكرامة؛ لأن الاحتلال شكل مصدر قلق دائم للشاعر ويدفعه إلى تحدى والمواجهة. وفي هذا ما فيه من التوحد والانصهار بين الشاعر ومظاهر الوطن بكل أشكالها. هوية الشاعر التي يحملها النخيل، تجذبه نحوها، وتستحثه على مواصلة السير والإصرار على المواجهة والثبات. وقوله (السماوي، جرح باتساع الوطن، ١٩٩٣م: ٦):

والنخلُ سَيِّباً مِنْ أَعْدَاقِهِ

فَأُنْحِنِي

أنا الذى أريدُ أن أموتَ واقفاً كنخيل العراق!

أيضاً قوله (السماوي، قلبي على وطني، ١٩٩٣م: ٤٩):

زِدْ مَا تَشَاءُ، فَأَنْتَ تُمْتَحَنُ
صَخْرَ الْعِنَادِ، أَنَا لَهُ السَّكَنُ
نَسَلُ النخيلِ، وَمِنْهُ بِي سُنُّ
إِنْ كُنْتَ تَسْتَهْوِي مُنَازِلَتِي
فلسوفَ تَلْقَى فِي مُجَالِدَتِي
أُقْسَمْتُ أَرْدَى واقفاً فَأَنَا

نلاحظ من الأمثلة السابقة؛ أن النخل العراقي، يشارك في المقاومة ويصبح معادلاً للأهل ويصير رمزاً للصمود والنضال والشرف ورفض الاحتلال، وإعادة الكرامة والعزة. وهذا ما أورث الشاعر إحساساً بالمرارة التي طبعت شعره بالتمرد والغضب نتيجة ثورته الداخلية

وتعلقه بوطنه الجريح وحث الشعب العراقي للوقوف بثبات وعزيمة أمام الاحتلال الأمريكي وجرائمه البشعة في العراق.
ويصير "النخل" في موضع آخر رمزاً للتشبث والانتماء بالوطن. من ذلك قوله (نفس المصدر: ٦٩):

النخلُ نفسُ النخلِ إلا أنه
لُكأنَّ سَعْفَ النخلِ حَبْلٌ مشيمةٌ
مُسْتَوْحَشُ الأَغْذاقِ والسَّعْفَاتِ
شُدَّتْ به رُوحِي لطِينِ فِرَاتِ

إن الشاعر في هذا الإيحاء الرامز يرقى بالصورة الشعرية إلى آفاق من التأثير، والإثارة في نفس المتلقي أضعاف ما لو اتجه الشاعر إلى تقرير الفكرة، والتعبير عنها بشكل مباشر وصريح. فالسماوى على البعد يعانى، ولم يفصله عن مآسى شعبه شىء، كأنه مربوط به بسعف النخيل؛ "لُكأنَّ سَعْفَ النخلِ حَبْلٌ مشيمةٌ / شُدَّتْ به رُوحِي لطِينِ فِرَاتِ"، والنخل هنا؛ دال على تشبته وانتمائه بالوطن، وتجزره فى طين العراق. كذلك قوله (السماوى، قلبى على وطنى، ١٩٩٣م: ٨٢):

إذ قيل "العراق" وَضَعْتُ كَفَى
وما نَكَّرَ العراقُ هَوَايَ، لكنْ
علي قلبى، وَيَخْنُقْنِي النحيب!
تَنَكَّرَ لِي، وللوطنِ "المهيبُ"

علاقة الشاعر بشجرة "النخيل" حميمة إذ اشتهرت وطنه الجريح بزراعتها ويبدو أن أكثر ما يلحظ في تكراره لها توظيفها لانتمائه وتشبته بالوطن على رغم بعده عنه. فيربط بين نفسه الحزينة وطين الوطن من خلال ذكر هذه الشجرة لنشم رائحة الوطن والحنين إليه. فالنخل هنا؛ رمز الأصالة والتشبث والانتماء بالوطن؛ لأنه جزء من هذه الأرض التى عشقتها بكل معطياته، والسماوى يتوحد مع الأرض من فرط حبه لها وعشقه وهيامه بها وهذا دليل على الرابطة القوية التى ترتبط بين الشاعر والأرض ونباتاتها.

كذلك قوله (السماوى، ٢٠٠٦م: ١٢٠):

إذا كَفَّ الحَمَامُ عن الهديلِ
هَبْ أنْ مَفْتاحِي سيفتَحُ قفلَ بابِ المستحيلِ
أَتَكفُّ عن وجع التماهى
بالسماوةِ والنخيلِ؟

النخل هنا؛ «صِنُو الذات، ورديف الوطن، ورمز الشموخ والإصالة، والثبات والبقاء، وإنه لينفعل بما ينفعل به الوطن وجدانياً، ويحسّ ما يحسّه من اللوعة والأسى وحسرة الاغتراب» (بدوى، ٢٠١٠م: ١٦٧) إذن؛ لا نستطيع أن نفصل بين الشاعر والوطن، نحن إزاء وحدة كلية، ليس هناك حدود وفواصل، بل حالة من التوحد والتماهي الكامل بين الشاعر ووطنه. كما يصير في موضع آخر ليصبح أسمى وأعمق، ليصبح النخل دلالة على الوجود والكيان والتشبث، كما نرى في قوله (السماوي، ٢٠٠٥م: ٥٦):

فلأنّ لي طبع النخيل تشبُّثاً
ولأنّ صَوْنَ العهدِ من أخلاقى

كذلك قوله (السماوي، مسبحة من خرز الكلمات، ٢٠٠٨م: ١١):

أنا الملك المتوج

رعاياي

الوردة

السنبله

العصفور

في مملكتي الممتدة

من باب الكوخ

حتى سريري المصنوع

من سَعف النخيل.

عبر السماوي في هذه الأمثلة، عن حنينه وتشبته بتراب الوطن بصورة أخاذة ومدهشة، وشفافية عالية، كل ذلك بعذوبة فائقة. فيصير "النخل" عنده رمزاً يتماهي بالعراق الجريح ويتحول "النخل" إلى امتداد روحه وتشبته في طين الوطن. إن الشاعر قد انصهر بوطنه انصهاراً تاماً وأغرق نفسه بلجة الحزن على الوطن والتماهي فيه حتى امتزجت معه. شفافية احساس الشاعر تكشف عن مدى الرهافة والحساسية التي يتمتع بها الشاعر، وهذه الحساسية قادرة على بث الروح والحركة في مفردات الطبيعة حتى نستطيع القول بأن الشاعر قد وصل في موضوع "الحنين إلى الوطن" إلى ذروة لم يبلغها إلا القلة القليلة من شعراء العرب المعاصرين.

النهر

يتخذ *السماوى* "النهر" رمزاً للوطن ويوحى به من معانى الحياة والتجدد، والانتماء، والألم والفجيرة. ويتعدى الدلالى المباشر، ويذهب بعيداً فى التعبير إلى أبعاد إيحائية متجددة. نظر الشاعر إلى "النهر" على أنه يمثل جزءاً عزيزاً من وطنه الممتد المتنوع الطبيعية. وفى ذلك يقول (السماوى، ٢٠٠٦م: ١٦):

بينكِ والفراتِ

أَصْرَةً

كِلَاكُمَا يَسِيلُ مِنْ عَيْنِيَّ

حِينَ يَطْفَحُ الْوَجْدُ

وَحِينَ تَشْتَكِي حَمَامَةُ الرُّوحِ

مِنَ الْهَجِيرِ فِي الْفَلَاةِ.

إن *السماوى* لا ينظر إلى الوطن على أنه شيء منفصل عنه، بل يراه امتداداً لكيانه وغدا كل شيء فيه مثار إعجابه واشتياقه وتعلقه به؛ و"الفرات" هنا يصير عنده رمزاً يتماهى بالعراق، فتكون رمزيته فى هذا السياق رمزية روحية؛ «فتحن هنا أمام فراتٍ جديد حاضر فى تجربة الشاعر أسى ووجدا، وإنه ل"يَطْفَحُ" - على حد تعبير الشاعر، وما يوحى به هذا الفعل من تدفق غير صِحِّي - متوازياً فى ذلك مع الحبيبة الوطن من منبع ذاتي خالص، لا من منبع جغرافى، وهو عَيْنَا الشاعر، عندما يستبدّ به هجير الحزن، ويحرّقه ظمأ الوجدان، وإذن فحضور النهر هنا حضور استلابٍ واغتراب، لا حضور إيجاب وريٍّ لمفاوز اليباب» (بدوى، ٢٠١٠م: ١٧٣) ومن هذه الشواهد أيضاً قوله (السماوى، ٢٠٠٦م: ٩١ - ٩٢):

ثلثاً دَمِي مَاءُ الْفِرَاتِ وَثَلْثُهُ طِينٌ بَدْمَعِ الْمَتَعَبِينَ مَذُوبٌ
شكراً تقى العشقِ باسمِ صبابتي "والشكرُ موصولٌ بهِ الترحيبُ"

العصفور

تردد فى شعر *السماوى* مفردات دالّة على حيوان وطير، وهى مفردات لها دلالتها فى السياق الشعري، ويمنحها الشاعر أبعاداً معينة، ويسقط عليها أيضاً من أحاسيسه، ليؤدى بها وظائف سياقية وفنية تتفق مع تجربته. ومن أكثر هذه المفردات تردداً فى شعره هى

العصفور. يستعمل *السماوي*، العصفورَ رمزاً لضياح الوطن وتشرد واغتراب الشعب العراقي. ومن ذلك قوله (السماوي، ٢٠٠٥م: ١١٧ - ١١٨):

كلما نَرْفَعُ صوتاً
باسمِ طفلٍ شاخٍ رُغْباً
وأبٍ قَيْدَهُ القهرُ
وباسمِ الأَرْمَلَةِ
أَوْقِفُوا سَفْكََ الدمِ المهدورِ في (الكوفةِ)
في (الأنبارِ) و (البصرةِ)
في (الكوتِ) وباقي المدنِ المُشْتَعِلَةِ
فمتى تعطون للجائعِ خبزاً
وأماناً للعصافيرِ التي غادرتِ الحقلَ؟!
متى يَرُكِنُ للحكمةِ (ربُّ القُنْبَلَةِ)
فَيَجِيبُ القَتْلَةَ:
صَبْرَكم..
لم يُكْمِلِ التحريرُ عامينِ
علامَ العَجَلَةَ؟

تضاعف الحزن لدى الشاعر؛ وهو يدرك أن الخراب والدمار قد عمّ وطنه ولم يبق له سوى الدمار والجراح. ففي هذا المقطع يصور لنا الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق، وخيم عليها الدمار والمأسى، وشرد آلاف من الشعب العراقي من وطنه، فيتخذ الشاعر من صورة "العصفور" رمزاً للمعاناة وتشرد أبناء الشعب العراقي في ظل هذا الواقع المتردى إثر احتلال الأمريكان للعراق؛ فقد حرر الاحتلال العراق من ظلم الديكتاتورية الصدامية، ليحتلها احتلالاً أشد قسوة ومأساة من النظام السابق؛ وهم كالمستصرخ من الرضاء بالنار.

الذئب

«إن الذئب في أدب القدماء والمحدثين ترمز إلى الخير مرة، وإلى الشر مرة أخرى، فهي لم تكن دائماً ذئاباً حقيقياً، وإنما كانت أيضاً رمزاً للشر، أو رمزاً للطوائف من

الصعاليك والمضطهدين» (صرصور، ٢٠٠٥م: ٢٨) ومن رموز العدو الذي يشير به إلى المحتل هي؛ "الذئب" حيث يقول (السماوى، ٢٠٠٥م: ١٠٥ - ١٠٦):

وَجَحْفَلٌ مِنْ أُشْرَسِ الذَّنَابِ
مِنَ الذُّبَابِ الْبَشْرِيِّ
يَنْشُرُ الطَّنِينَ فِي الْمَدِينَةِ الْخَرَابِ
يُبَشِّرُ الْخَانَعَ بِالثَّوَابِ
وَيُوعِدُ الثَّائِرَ بِالْعِقَابِ.

فهذه الأسطر تبين المشهد العراقي الراهن من فجائع؛ ويرمز الشاعر للمحتل بالذئب، وهو حين يختار الذئب رمزاً له، فما ذلك إلا لتوفر أوجه الشبه بين الذئب - الشراسة والوحشية - وبين المحتل وشراسته وجرائمه البشعة في العراق. وقوله (نفس المصدر: ٨٤):

وَأَنَا أَقْلُدُ نَبْضَ قَلْبِي لِلذِّئْبِ
يَقَاتِلُونَ الذَّنْبَ فِي البُسْتَانِ..
لِلْأَطْفَالِ يَسْتَجِدُونَ مِنْ جُوعِ بَرَامِيلِ الْقِمَامَةِ..
لِلنِّسَاءِ الْمُتْكَلاتِ..
وَلِلْقَنَادِيلِ الْكَفِيفَةِ
سُمِلَتْ
لأنَّ (محررى) لا يستبينُ الدربَ
إلاَّ تحت أضواءِ القذيفةِ.

يرمى الشاعر في هذه الأسطر، إلى إيصال الصورة المأساوية في الاحتلال وما تبعها من كوارث بأقوى تعبير وأشد وأقسى معنى يمكن أن يوحى بالصورة في أعلى بشاعتها وأسوأ تداعياتها؛ فالعراق ترزح تحت نير الاحتلال، "ذئب" الأمريكان، لا يعنيهم القتل والإرهاب والدمار وعدد الجائعين، ويرى الشاعر، أن هذا المحرر المزعوم ما جاء لإفراز فعل إنساني وهدف إنساني بل للشراسة، واحتلال الوطن وقذفه بالقنابل، إذن؛ يرى من واجبه الذود عنه؛ فيقلد نبض قلبه وساماً للمجاهدين الذين يقاتلون "الذئبان" في الوطن، ويتعاطف مع جراح الوطن ومآسيه. وفي موضع آخر يرمز السماوى "بالذئب" إلى حزب البعث - النظام العراقي السابق - حيث يقول (السماوى، قلبى على وطنى، ١٩٩٣م: ١٣):

تَرَكَتُ "دجلة" يعوى فى خرائبها
 كلب، وَتَمَرَعُ ذِئبانٌ بلا عَدَدِ
 فما جَلَسْتُ إلى شُطآنِها غَرِداً
 إلاّ وَيسُبقنى نحو العذابِ غَدى!
 تَمَخَّضَ الرِّجْسُ يوماً فى مرابعها
 فَلَيْتَ "صَبْحَةَ" لم تُخْصَبْ ولم تَلِدِ!

غادر السماوى وطنه العراق بعد أن خيم عليه الحزن والخراب تحت نير سياط حزب البعث؛ ولقد استخدم الشاعر، هذا الرمز - ذئبان - للتعبير عن هذا الشر والجراح والدمار الذى ساد فى العراق فى هذه الفترة. وهذه الأبيات تعبر عن الآلام التى أهدقت بالشاعر فى الغربة التى أصبح الشاعر فى حزن وأسى عميقين؛ هو يعانى ألم الغربة عن الأهل والوطن، وألم المأساة التى يعيشها الشعب العراقى من القتل، والدمار، والجوع من سيطرة "ذئبان البعث" على العراق. ويتمنى أن "صَبْحَةَ" (والدة الطاغية صدام حسين) لم تخلص ولم تلد؛ والتمنى هنا؛ يحمل نوعاً من الأسف والتحسر على هذا الوضع المؤلم فى العراق وهى بمثابة تلك الزفرة أو ذلك الأنين الذى يخرج من صدر الشاعر للتنفيس عن الألم الضاغط المحاطة به.

الخنزير

يتخذ السماوى "الخنزير" رمزاً لطاغية العراق - صدام - قائلاً (السماوى، جرح باتساع الوطن، ١٩٩٣م: ٤٠):

أه يا حبيبتى لماذا نشعر فى الوطن بالغربة

وفى الغربة نشعر بالوطن؟

لنخزنُ غضبنا، ريثما ينفجر الجرحُ

على نفسه، فترعد الأرض تحت أقدام

"خنزير السياسة" فى بغداد.

إنه شاعر ثائر على كل ألوان الفساد والانحراف والخنزى والإذلال؛ فأراد التعبير عن العار الواقع على الوطن من جراء سيطرة حزب البعث على العراق، فيرمز بصدام ب "الخنزير" الذى دنس العراق. فهم مصاصو دماء الشعب وهم صنف آخر من البشر، وهم مسوخ خلائق.

وكذلك، يتخذ السماوى "الخنزير" رمزاً للمحتلين فيقول (نفس المصدر: ٥٣):

في وطن النخيلُ
يحقُّ للخنزير أنْ يَخْصُدَ بالرصاصِ
عشبَ الله في المحرابِ
يحقُّ للمدفع أنْ يطرقَ كلَّ بابِ
ما دام أنْ العصرَ عصرُ غابِ.

هذا الخنزير هو الأمريكي الذي يرتكب الجرائم البشعة في العراق؛ فيبين من خلال رمز "الخنزير"، سيطرة الظالمين والسفاحين الأمريكان على العراق؛ فيذكر الشاعر بلده العراق وما تعانيه من آلام، وجراح وأحزان؛ فينقل لنا المشهد الإجرامي الذي يحدث في العراق في ظل الإحتلال الأمريكي، وهو يرى، كم تحول وطنه العزيز إلى مستنقع تداس فيه الكرامة والعزة، وهذه الخنازير والأوغاد لا يقيمون وزناً للشعب العراقي.
يرد رمز "الخنزير" في أكثر من موضع، وفي أكثرها المرموز إليه هو الاحتلال، منها قوله (نفس المصدر: ٨٥-٨٦):

لا شيءَ غيرُ النارِ
لا شيءَ غيرُ النارِ
يُطَهِّرُ البستانَ من رِجْسِ الخنازيرِ
ومن شوكةِ الخنا والعارِ.

فالشاعر يعبر عن المحتل بالخنزير الذي يداس في العراق، فلا بد إذن من تطهير العراق بالنار من رجس المحتلين وعملائهم.

الجراد

ويرمز "بالجراد" إلى أعداء الوطن، حيث يقول (نفس المصدر: ١٠٧):

كلُّ الجرادِ البشريِّ الآنَ في بغدادِ
فيا جياحَ الرافدينِ أتحدوا
ونظّفوا الحقلَ من الجرادِ
كي لا يجوعَ في الغدِ الأبناءُ والأحفادُ
فإنَّ تأمينَ رغيفِ الخبزِ

فَرَعٌ من فروعِ شِرْعَةِ الجهادِ.

الغراب

والغراب طائر لا يتفاعل به أحد، فهو رمز الخراب والشؤم، وكلمة غراب؛ «أمست بفضل تاريخها الميثولوجى، قادرة على استدعاء معانى الخيانة، وانعدام الثقة، والغدر، والغربة، والموت، والتشاؤم، وكل الصفات التى يصح وصفها بأنها صفات سوداء، وقد ارتبط الغراب فى القرآن الكريم، بالموت والدفن والقبور» (إبراهيم، ٢٠٠١م: ١٨٠)؛ ويأتى عند الشاعر رمزاً لخبائثة أعداء الوطن؛ ومن ذلك قوله (السماوى، ٢٠٠٥م: ١٣٢ - ١٣٣):

كان يَشُدُّ الليلَ بالنهارُ

مُهَاجِرًا من دونما أنصارُ

مُنْقَبًا فى مُدُنِ الريبةِ عن ياقوتَةِ الحكمةِ

تَسْتَفِزُّهُ الرِّيحُ فَيَسْتَهْزِئُ بالإعصارُ

وبالمماليكِ الذينَ بايعوا التتارُ

يحملُ فى فؤادهِ اللّهُ

وفى مقلتهِ السنبلَ والأزهارُ

يُبَشِّرُ التَّنُورَ بالدخانِ

والصحراءَ بالعشبِ وبالأمطارُ

والطفلَ بالدُمِيَّةِ .. والظلمةَ بالأنوارُ

لكنما (الأغرابُ) باغتوه فى المحرابُ

يقرأ فى الكتابُ:

(فضَّلَ اللّهُ المجاهدينَ...)

وقبل أن يُكْمِلَ

كَّرَ البَشَرَ الذئابُ

عليه بالرصاصِ والحِرابُ

بتهمةِ الإرهابِ!

يرمز الشاعر للعدو بالاغراب، فهي مصدر الخوف والغدر والإزعاج، وجاءت هذه اللفظة، وسط منظومة من الألفاظ والتراكيب ذات الدلالة المقيتة: "الليل، مدن الريبة، التتار، الظلمة، باغت، كره، الذئاب، الرصاص، الحراب، الإرهاب". والملاحظ؛ أن النبرة المأساوية تسيطر على الأسطر سيطرة شاملة من خلال استخدامه للألفاظ والكلمات وهذه الألفاظ كاشفة عن عمق الجرح والألم الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمرّ به العراق. لأن العراق ترزخ تحت نير الاحتلال، وتغرق في الجرح والدمار، والخراب، صاحب الحق منكمشة يتهم بالإرهاب؛ في حين المحتل يصول ويجول وقد نشر القتل، والرعب، والمآسى في أنحاء البلاد. وهنا؛ «يتحول النسق الشعري من نسق مدلولي دال على موقف اعتيادي يمارسه الإنسان في روتينه اليومي إلى محفز للرؤى والمداليل الشعرية؛ كاشفاً عن عمق الجراح التي يقترفها الجنود الأمريكيان على أطفال بلده العراق الأبرياء الذين لا يملكون حولاً ولا قوة، محاولين مصادرة الحريات وكبت المشاعر كبتاً مؤلماً؛ وإراقة الدماء بحجة مكافحة الإرهاب» (شريح، ٢٠١١م: ٢٨٣).

نتيجة البحث

تتبع الرمز عند السماوي، وجدنا أن رموزه تتميز بالشفافية غير الموعلة في الغموض. وأنه يستقى رموزه من الطبيعة ومظاهرها؛ ويكثر من ذكر المفردات الدالة على الطبيعة، وهي مفردات لها دلالاتها في السياق الشعري، ويمنحها الشاعر أبعاداً معينة، ويسقط عليها أيضاً من أحاسيسه. وخرجت مفرداته من سياقاتها المألوفة إلى سياقات شاعرية موحية. ويأخذ الوطن أكبر مساحة في نفسه، وهو لا يكف عن حزنه وبكائه لبعده عن الوطن، والأحداث والجرائم التي تمرّ بالعراق.

وارتبط حب السماوي بالعراق وتشبثه وحنينه إليها بكل ما له علاقة بالوطن من دوال ومدلولات كالنخيل، والنهر، والعصفور. والسماوي يوظفها في سياقات مختلفة ولا تنحصر فيه الدلالة، بل تعدد بتعدد سياقاتها؛ ف"النخل" يصير رمزاً، للأصالة، والتشبث، والجراح والمآسى، كما يصير رمزاً لمقاومة الشعب العراقي وصمودهم. أن علاقة الشاعر بالطبيعة ومظاهرها ليست علاقة وصف أو استمتاع، ولا يسلك مسلك شعراء الطبيعة الذين يهتمون بالوصف الحسي، إنما هي علاقة مشاركة وارتباط تحمل أبعاداً وطنية. وهذا دليل

على الرابطة القوية التي تربط الشاعر بالأرض (الوطن) ومظاهرها. فرسم من خلال توظيف هذه الرموز؛ صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي في زمن سيطرة سفاكين "حزب البعث" على العراق وبعده "الاحتلال الأمريكي" وجرائمه البشعة في العراق. والشاعر يعمد إلى خلق روح المقاومة في النفوس، وذلك بدعوته إلى الصمود أمام ظلم الديكتاتورية الصدامية؛ والاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة.



المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، محمد علي. ٢٠٠١م، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، قراءة ميثولوجية. ط ١، طرابلس: لا نا.

أحمد، محمد فتوح. ١٩٨٤م، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ط ٣، القاهرة: دار المعارف.
إسماعيل، عز الدين. ٢٠٠٧م، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، بيروت: دار العودة.

بدوي، محمد جاهين. ٢٠١٠م، العشق والاعتراب في شعر يحيى السماوي "قليلك لا كثيرهن نموذجاً". ط ١، دمشق: دار الينابيع.

تشادويك، تشارلز. لا تا، الرمزية، ترجمه نسيم إبراهيم يوسف. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
حوراني، رامز. ١٩٩٦م، نشوء وتطور الأدب العربي، ط ١، لا مك: الدار العربية للنشر والتوزيع.
السماوي، يحيى. ٢٠٠٥م، نقوش على جذع نخلة، ط ١، أستراليا: منشورات مجلة كلمات.
السماوي، يحيى. ٢٠٠٨م، البكاء على كتف الوطن، ط ١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
السماوي، يحيى. ٢٠٠٨م، مسبحة من خرز الكلمات، ط ١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

السماوي، يحيى. ١٩٩٣م، جرح باتساع الوطن، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.
السماوي، يحيى. ١٩٩٣م، قلبي على وطني، ط ١، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.
السماوي، يحيى. ٢٠٠٩م، شاهدة قبر من رخام الكلمات، ط ١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

السماوي، يحيى. ٢٠١٠م، لماذا تأخرت دهرأ، ط ١، دمشق: دار الينابيع.
السماوي، يحيى. ٢٠٠٦م، قليلك لا كثيرهن، أستراليا: لا نا.
شريح، عصام. ٢٠١١م، أفق الشعرية دراسة في شعر يحيى السماوي، ط ١، دمشق: دار الينابيع.
شريح، عصام. ٢٠١١م، موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيى السماوي، ط ١، دمشق: دار الينابيع.

ناصر، مصطفى. ١٩٨١م، الصورة الأدبية، ط ٢، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.